

معجبا عن العربية لغة المجاز ، ويرى أنها سميت كذلك لأنها تجاوزت بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسة إلى حدود المعاني المجردة ، فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه . فالقمر عنده بهاء ، والزهرة نضارة ، والغصن اعتدال ورشاقة والطود وقار وسكينة^(١٨) . نعم ولم يقل لنا العقاد فامزية أن توصف الجميلة بأنها زهرة ولا يقال إنها تتصف بالنضارة دون لجوء إلى المجاز ، على أنه يقترب مما نريد حين يشير إلى أن سليقة اللغة هي التي تجعل السامع العربي يفهم المعنى المقصود على الأثر إذا سمع واصفا يصف حسناء بأنها بدر على غصن فوق كثيب ، لأن ذهن السامع العربي تعود النفاذ في الصور الحسية إلى دلالتها النفسية ، فهو لا يرسم في ذهنه قمرًا وغصن شجرة وكومة من الرمل حين يستمع تلك العبارة ، ولكنه يفهم من البدر إشراق الوجه ، ومن الغصن نضرة الشباب ولين الأعطاف ، ومن الكثيب فراحة الجسم ودلالتها على الصحة وتناسب الأعضاء^(١٩) . ومع ابتذال المثل وتعويله على التجريد فإنه يضيف ما يقر بنا إلى مزية التعبير المجازي وفضيلته ، فالشاعر يرى الأشياء بذاته ، ليس كما يراها الآخرون ، ولا يراها مفردة تعيش في عزلة بل يراها ذات علاقة وصلات ، ولهذا العلاقة منطقها الخاص (القمر والغصن والكثيب في مثال العقاد) ، ويقرأ فيها أكثر من شيء واحد ، ولكن لا يكفي أن نقول إن التعبير المجازي نوع من الاختصار وتوفير الجهد ، فالتكثيف - وهو أهم أسرار المجاز - ليس اختصارا ، أو ليس اختصارا فحسب ، إنه اختصار في سبيل العمق والإطناب - إن صح التعبير - وحرية التصور ، بل لقد نظر هربرت ريد إلى أنواع المجاز جميعا على أنها نوع من الإطناب المركز ، قصد به اختصار صفات الشيء ، ومن ثم يؤكد فضيلتها نافيا عنها أن تعتبر مجرد نوع من إثارة الموارد أو عدم المباشرة في التعبير ، بل هي من باب أولى - كما يقول : تشير إلى نمو في الحساسية الشعرية ، ووسيلة رئيسية في تنمية الذكاء ، وتنمية اللغة أيضا^(٢٠) وينبغي أن نوضح كيف يمكن أن يجتمع التكثيف أو التركيز والإطناب في الاستعمال المجازي ، من الحق أن تسميه الرجل الشجاع بالأسد تعد نوعا من الاقتصاد اللفظي ، ولكنها ليست كذلك في الدلالة وما يستتبع الدلالة من مشاعر وتصورات ، فالشجاعة واحدة من صفات الأسد

(١٨) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٤٠ .

(١٩) السابق ص ١٨ .

(٢٠) Herbert Read, English prose Style, P. 34.